

انحطاط العالم : المجموعة القصصية "لك النيل والبحر.." للسيد حافظ

د. بوخالفة إبراهيم

أستاذ الأدب المقارن والنقد الثقافي

المركز الجامعي مرسلبي عبد الله

الملخص:

يستعرض السيد حافظ في مجموعته القصصية "لك النيل والبحر" خلاصة تجاربه في كثير من المجتمعات العربية بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين، و إلى غاية نهاية القرن و بداية الألفية الثالثة. وكانت خلاصة تلك التجارب تأكيد فرضية انحطاط العالم بسبب زوال قيم الخير و العدالة الاجتماعية و الحريات الفردية و حقوق الإنسان. وكان المثقفون الأحرار يقاتلون بضراوة على صعيدين اثنين. إنهم يقارعون الاستبداد السياسي، وحلفاءه من أشباه المثقفين، كما يقاومون الشر الآتي من خارج حدودهم. و يطمح هذا المقال إلى دراسة هذه التيمة اللوكاتشوية من خلال القصص.

الكلمات المفتاحية: انحطاط العالم؛ القيم؛ المقاومة؛ الإدانة؛ الرفض؛ الاحتجاج؛ اللامعقول. الملخص باللغة الانجليزية

Abstract :

In his collection "The Nile and the Sea", Mr. Hafez reviews his experiences in many Arab societies From the second half of the twentieth century to the end of the century and the beginning of the third millennium AND The conclusion of these experiments was to confirm the hypothesis of the decline of the world Due to the demise of the values of social justice, individual freedoms and human rights. And the Free intellectuals was fighting fiercely on two levels; They are fighting political tyranny, and its semi-intellectual allies As they resist the evil that comes from outside their borders. This essay aspires to study this laconic dimension through some stories

Key words : The decadence of the world, values, conviction, rejection, protest, the irrational.

مقدمة

عندما يكون العالم منحطاً، وتختفي قيم المجتمع الموروثة عن الأسلاف، والتي تحظى بتقدير المجتمعات المتعاقبة ذات التاريخ المشترك، عندما يتحوّل المعقول إلى اللامعقول وتفقد الأشياء دفئها ويفقد الأحياء شهوة الحياة، عندما يُسمع للمتناقضات ضجيجٌ وصخبٌ مؤذ، عند ذلك تنزوي الذات المفكّرة في ركن من أركان الأرض وبينها وبين

خارجها حجابٌ مستور فلا ينفذ منه ولا إليه شيء من روح العالم. وعند ذلك تتقطع الروابط بين الإنسان والكون، وتفتت الأسباب الواصلة بينه وبين موئله، فيتحول العالم كله إلى كتلة من دخان معتم يحجب المعرفة ويعزل الذات عن الموضوع ويقتل فيها الإحساس بالأشياء. عندئذ يتركز العالم كله في الذات المفردة، فلا تشعر إلا بوجودها الذي يكتفي بنفسه ويكون هدفا لذاته وفي ذاته، فلا مبرر لكونه خارج كينونته. تصبح الموجودات والجزئيات امتدادا لهذا الوجود المفرد والمنفرد وبعدا من أبعاده، وتصبح كل الأصوات إيقاعا لصوته المتوحد، وشكلا من أشكاله.

يفتقد الإنسان نقطة ارتكازه إذا فقد المواساة من الآخرين والعون من الذين يتقاسم معهم التاريخ والجغرافيا، فلا يحظى بالاعتراف ولا بالحب ولا بالتواصل. إنه عالمٌ بلا تاريخ ولا ذاكرة هذا الذي تغيب عنه روح الجماعة والعيش المشترك، والتفاعل. تفقد القيم الموروثة والطارئة بفعل الحداثة محتواها الإنساني، وتتحول إلى طقوس عاداتية بلا عمق ولا أثر على مستوى العلاقات الاجتماعية، كما على مستوى الوعي الذاتي. إن الوجود بمعزل عن الآخر أو بحضور سلبي غير متحاور هو سقوط في العدم واللاجدوبواللامعنى. إنه الجحيم الذي يتحدث عنه سارتر. عالمٌ منحطٌ ومشئى هذا الذي سنهاجرُ إليه رفقة السيد حافظ في مجموعته القصصية "لك النيل والبحر والهزم يا أميرتي". يتوزع وجوده بين دول الخليج والشرق الأوسط، بين فئات اجتماعية شتى وطبقات دنيا وعليا، تحكمها قيم البراغمية وحب الذات والتركز حول الأنا، والتعصب للرأي وللعرق والثقافة، والعشيرة والطبقة والجنس. كما يتوزع وعيه بين الحداثة والأصالة والجد والهزل، والثقافة والطبيعة، والجوهر والعرض. ونحن بدورنا سنتوزع بين الأدبي والإيديولوجي، بين الجمالي والموضوعاتي، بين اللغوي والفكري.

الوعي بالذات:

العودة بالذات إلى النشأة الأولى تهدف إلى تفجيرها من الداخل حتى تأخذ أبعادها الكونية والنبوية. وهو إجراء استبطاني يهدف إلى تحطيم كل الحواجز البرانية والجوانية التي تعيق البصيرة عن إدراك الحقيقة في ذريتها كما في مطلقيتها. من أجل ذلك يلجأ الإنسان إلى الحفر في جذوره العرقية والأنثروبولوجية بحثا عن النقاء السلالي وأجداد الأسلاف الممتدة في الماضي السحيق. إنها الأبحاث التي من أجلها أنشئ علم الأنثروبولوجيا الحديث في الغرب، والذي كان يهدف إلى تأكيد تفوق العرق الهندو-أوروبي على بقية الأعراق البشرية، كما أنها الأبحاث التي تكفل بها علم الفيلولوجيا الذي أنشأه دوساسي وتلميذه ارنت رينان الفرنسيان.

ولا مراء في أن الحضارة الفرعونية هي من أعرق الحضارات الإنسانية ومن أعظمها، وأن أثرها على الحضارات الأخرى الغربية والشرقية لا جدال فيه إلا من باب المكابرة كما هو الشأن لدى المستشرقين الفرنسيين المتعاطفين مع الفلسفة العنصروية. لقد شكّلت الأسرة الفرعونية سلسلة من كبار الشخصيات التاريخية الذين ذاع صيتهم

وبقي ذكرهم ممتداً إلى يومنا هذا. "ومن الطبيعي أنّ عصور الفكر الكبرى ونماذجه لا تعرف نهايات حادة ولا بدايات مفاجئة. فأمشاج الماضي تتسرّب في تلافيف الحاضر. وكثيراً من مرجعيّات الحاضر تستمدّ نسغها من صلاية النموذج السابق. ويصعب تخليص الأفكار الجديدة من التصوّرات الموروثة"ⁱ. إن كون الحضارة المصريّة تنتمي إلى ماضٍ عريق وحافل بالأجداد والعجائب ليست حقيقة خاملة. فالأهم سرديات كبرى ومرويات وتواريخ يتعدّد نحو أثرها أو إضعافه.

يلجأ الإنسان إلى مثل هذه المماحكات التي تهدف إلى إثبات الذات وترسيخ الهوية في حالة وجود خطر يتهددها أو يطمس ملامحها. إنّ لغة الانتماء القومي تأتي مشحونة بضروب الدفاع عن الأسلاف ذات المغزى الأخلاقي. ففي قصّة "لك النيل والبحر والهرم يا أميري" التي تصدرت المجموعة، يشير السيد إلى حادثة مولده عندما هم والده بتسميته، "سمّوه السيّد تيمنا بالشيخ السيد البدوي"ⁱⁱ. واللافت في هذه الإشارة أنّ الاسم الذي أوصى به الوالد وهو "السيد" يحتل كل معاني الشرف والمروءة. فهو صفة مشبّهة من الفعل ساد يسود سيادة فهو سيّد، ومهيمن ومسيطر ومحيط بموضوع السيادة. إنّها الحاكميّة والعلو والتفوّق. من ناحية أخرى، يريد الوالد أن يتبرّك ب"الشيخ البدوي". وعبارة الشيخ بدورها، في المجتمعات العربيّة التقليديّة تلمع إلى العلم والحكمة والسيادة والريادة، وهي عادة ما تشير إلى مرتبة اجتماعيّة ورتبة علميّة دينيّة مرموقة. أمّا عبارة البدوي، فهي بدورها إشارة إلى الأصالة والعمق الأخلاقي والبراءة من المدنيّة الفاسدة والمفسدة، كما أنّها الرّحم الأول للإنسان مهما كان موقعه الاجتماعي. توجد لدى الراوي نزعة نحو أسطورة ولادة السيّد احتفاءً بمولده ليس فقط اعتباراً لذاته وإنّما اعتباراً لكونه امتداداً لسلالة عريقة في النبالة والحكمة. ولعله "يكون صوفيّاً ويأتي بالمعجزات، يسير فوق الماء ويأمر السحاب أن يجري فيجري، وأن ينهض فينهض، فيصبح نافورة في عنان السماء"ⁱⁱⁱ. وبذلك يتحول المثقف إلى نبي يبشّر قومه بالمعجزات والكرامات. فيسقي أرضهم وينبت زرعهم ويبارك حصادهم، ويوقظ فيهم بذرة الخير وإرادة الحياة، ويحيي أجدادهم الغابرة. إنّ الأنبياء هم ضمائر أقوامهم ومنارهم التي يهتدون بها؛ وعسى أن يكون المثقفون الذين يحملون هموم أوطانهم هم ورثة الأنبياء جيء بهم لتنوير العقول وهداية القلوب وترشيد الأخلاق.

يتلقى السيد دعوة من سيّدة كويتية لزيارة مجاملة في بيتها، فيرفض الدعوة بطريقة لبقّة، ويذكرها بأنهم القيم الاجتماعيّة التي لا يمكن اختراقها، إذ لا يحقّ لرجل أن يغوي أو أن يستجيب لإغواء امرأة تشاطره المسكن أو هي زوجة أحد أصدقائه أو أقاربه. لقد تجاهلت السيدة الكويتية هذه التقاليد المكيّنة في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، كما أنّها متجدّرة في وعي¹ السيّد، وهي تنسجم مع مبادئه في العيش المشترك ما دامت من أسباب قوّة المجتمعات ومناعتها ضدّ التحلل والتفكك.

يُعرض السيد عن تلك المرأة ويندس في غرفته التي تشكّل عالمه المغلق حيث يشعر بذاته وقد سكنها العالم كلّ فلم يعد يشعر إلّا بجسده. وتضخّم فيه الوعي حتى أضحى يسع الفضاء كله بزمانه ومكانه. وتلاشت كلّ الأشياء وتداعت كل المشاعر وآل الوجود الخارجي إلى الدرجة الصفر، فقد أضحى العالم مسكونا به، مهووسا بدفعه، موجوعا بهمه، ينقاد له كيفما شاء: "العالم وأنا، أنا والعالم، العالم أنا، أنا العالم، العالم... أنا"^{iv}. يتدرّج الحلول في العالم عبر مراتب روحية وعقلية موعلة في الكثافة، مسرفة في العمق وكأنّها تمتص المعرفة من عمق البحر، أو أنّها تستدرجها من عنان السماء.

"العالم وأنا": في هذه الحالة يوجد العالم ثمّ الأنّا، أو الذات المدركة له. فهما إذا وجودان مفترقان من حيث الجوهر والطبيعة والأبعاد. العالم سابق في الوجود، مفارق في الماهية، والذات متأخرة في زمن وجودها. فهي تعي ذاتها في اختلافها عن موضوع معرفتها. وبينهما حاجز رُمز له بحرف العطف "و". إنّها واو العطف وقد تفيد المعية، أو التابع والتدافع. وفي كل الحالات فهي رمز الاختلاف بين الراوي وعالمه الخارجي، وهو اختلاف يرتقي عاليا بدرجة التوتر والرفض لهذا العالم الموصول بالرديلة والتشيء، والمنحط. وفي مرحلة ثانية، "أنا والعالم"، تتقدّم الذات على موضوعها في سابقة وجودية، بحيث يأتي إدراك الذات ثمّ يعقبه الإحساس بالعالم الخارجي. تدرك الذات عالمها الخارجي وتعيه في وجوده المستقل والمفارق، وفي مرحلة ثالثة يزول الحاجز بين الذات والموضوع بزوال حرف الواو فيصبحان معادلة متساوية الأطراف، ذات طبيعة وجودية واحدة، بحيث يمكنهما تبادل المواقع والأزمنة ما دامت هذه المعادلة قابلة للتكرار ومتماثلة الأطراف والأبعاد. يصبح المعطوف والمعطوف عليه كيانا واحدا ومتوحدا ووحيدا. غير أنّ الذات وبحكم طبيعتها العاقلة والمفكرة بمقدورها أن تفرض تأويلها لعالمها وتحدّد له نمط وجود ونظام قيم، وهذا يستدعي فرزا للواقع الثري وإطراح كل ما هو ناشز وغير منسجم مع المثال. من هنا تصبح السيارة التي ألّفها واثلف معها من أشيائه الخاصّة، امتزجت بشعوره وساكنت وعيه، سافرت معه حيثما حلّ فأحبّها ورفض استبدالها^v. إنّها أضحت رمزا لتجاربه وصبواته وموضوعا لعواطفه. إنّها جزءا حميما من وعيه، وهي بمثابة عصا موسى، أو مزمار داوود، فهي تدلّ عليه وهو يدلّ عليها. لقد أصبحت السيارة التي لازمت صاحبها عقودا وسيلة كشف ومعرفة وهي الدليل على اعتلال العالم واختلاله، وهي لذلك تننّ وتتوجّع وتتوسّل التغيير، "وقوانين العالم لا تعرف كم هي مهمة...وكم قابلت وعرفت وصادفت حوارات...سيارتي تننّ كلّ يوم"^{vi} لتشكوه قساوة الواقع وفساد الناس.

الوعي بالعالم:

ينطلق الوعي بالعالم من خلال الأماكن المغلقة والموصولة بالخارج؛ بل إنه لا يتحقق الوعي بالمطلق إلا من خلال التواجد في دائرة النسبي، كما أنه لا يُعرف الكل إلا بمعرفة الجزء، ولا يُعرف العام إلا من خلال الخاص، والفضاءات المفتوحة لا تُدرك إلا من انطلاقاً من فضاء مغلق لأن العقل يعجز عن احتوائه في امتداده وكيّته. كان مذياع السيارة هو الذي يحرك التاريخ لدى السيد وهو قابع بداخلها. "جاء في الأنباء أنّ قبور الشهداء تتحرك في غزة محمود درويش" ^{vii} احتجاجاً على فضاغة البشر وظلمهم وعلى انحطاط العالم الذي هجرته القيم وتخلّى عنه الله لحكمة لا يعلمها إلا هو، فغداً موحشاً وموجعاً وموطناً للجريمة ومنبعاً للزيلة وشاهداً عليها. عالم هجرته الآلهة التي صنعها الإنسان لتتواطأ معه، فأضحى خواء لا يُسمع فيه إلا عواء الذئاب وصراخ المعذبين الذي بلغ مسامع الشهداء فتحركوا في قبورهم؛ ولم يشعر بحراكهم إلا السيد حافظ ومحمود درويش ومن على شاكلتهما من الذين يحملون أوزار أمتهم على أكتافهم. فهم أنبياء العصر ورسول الحرية وأيقونة الكرامة التي لا تتأتى إلا بالمقاومة والقتال المرير، وبكل أدوات الاحتراب. "اقتحم جنود إسرائيل غزة. غزة هي وطني يا وطن الجراح الأكبر؛ كم مرة احتلّت، كم مرة قتلت وكم مرة نهضت" ^{viii}. كم للسؤال المحير، وكم للتعجب المدهش، وكم للاستنكار والتشجيب والتفريع، كم للردع والتبخيس لقوم ميتين غير أحياء، سُلِبَتْ منهم الإرادة فغدوا دمي متحركة وبطون تلتهم كل ما يرمى لها من قبل كبار العالم.

وبينما غزة تحترق تحت نعال اليهود تقام الحفلات والأغاني في العواصم العربية احتفاءً بال"الصمود العربي" وب"القومية العربية" وبال"نصر العربي"، وهي إنجازات وهمية يصنعها الإعلام الخاوي لتنويم الشعوب وتعطيل فعل المقاومة. غير أنّ المثقفين الأحرار الذين لا يدينون إلا لخياراتهم الأخلاقية يتلقون رسالة الإعلام بكثير من السخرية والتهكم، وتلك إحدى طرق مقاومة الفساد في ظلّ تعدّد جبهة اجتماعية تتكفل بتصحيح الأوضاع. يقول السيد "أقاوم الفساد في كل الأمكنة ولا أستطيع" ^{ix}

في رسالة بعث بها أحد مثقفي الكويت "أحمد جمعة" إلى السيد، وقد كانا صديقين منذ سنوات، دعاه فيها إلى تكوين تجمع للمثقفين الأحرار والمتمردين على فساد الأنظمة العربية، أجاب السيد أنه فقد الإحساس بالحياة، وأنه يقاوم الشرّ في كل مكان، ولكنه لا يستطيع أن يصل به إلى مداه الأقصى من أجل إحداث تغيير في الأوضاع المأساوية للوجود العربي. فالأنظمة الحريضة على بقاء الأوضاع على حالها تستمدّ قوّتها من حلفائها من أشباه المثقفين الذين يترصّدون جمع الغنائم. "هناك دخلت في ألف معركة مع أشباه الأدباء وأشباه الصحفيين وأشباه المبدعين، وهنا دخلت في نفس المعارك ولكن بأسماء أخرى. قدرني أنني أحاربُ الأشباه... وهم في صراحهم أقوى من السلطات والحكومات" ^x. حاول السيد بوعيه الكوني وانتمائه الأقلويّ - فالأحرار أقلويون في كل مكان - ، هو نفسه في الدّاخل كما في الخارج، مرصودٌ لمقاومة الشرّ، وتطهير الدّات العربية من قصورها وعجزها وخمولها

الذي اكتسبته بفعل الترهيب والتخويف. في كلّ بلد عربي يوجد مثقف وشبه مثقف، ومبدع وشبه مبدع، وصحافي وشبه صحافي. والأشبه أشدّ خطورة من الحكومات رغم ترسانة القمع والردع التي تمتلكها. إنّ الأنظمة تفكر بعقول مثقفيها الموالين لها. وهم الذين يمدّونها باستراتيجيات الهيمنة طويلة المدى مع التظاهر بالولاء لقضايا الأمة وهموم الوطن. فالوطن عندهم يُختزل في الأشخاص الذين يؤمنون لهم مواقعهم الطبقيّة ومصالحهم الفئويّة. إنّ المبدعين الذين يسخّرون أقلامهم لخدمة البرجوازيات الحاكمة، عسكريّة كانت أو مدنيّة أخطر بكثير من الحكومات التي تواجه مناوئتها بالقوّة الماديّة من خلال المراقبة والمعاقبة. ولذلك ينعتهم الكاتب في هذه القصّة بالكلاب. إنّ "المخلص لوطنه هو كلب" وفي لصاحب مجهول هو الوطن. كلبٌ يعشق شوارع المدينة ويطارد اللصوص ويحفظ أسرار المدن ويجرس المنشأة ويفتّش عن القنّلة واللصوص والفجرة^{xi}. فأسرار المدن هي أسرار أمن الدولة، والقنّلة واللصوص والفجرة هم أعداء النظام ومناوئوه. ولقد عودنا القضاء في الدول العربيّة على اختلاق تهم جاهزة للمعارضة السياسيّة من أجل تقزيمها وتقديرها أمام الرأْي العام.

تتردّد عبارة "كلب" في هذه المجموعة القصصيّة في سياقات كثيرة، من أهمّها التحقير والسخرية والسّخط على بؤس العالم من حولنا. ففي هذه القصّة التي بين أيدينا يراد بالعبارة إثارة أكثر الصفات تقيحها وتوبيخها لهؤلاء الذين باعوا أقلامهم من أجل متاع قليل. فالكلب في الثقافة الإسلاميّة مبعث للنجاسة والقذارة ولا يُرى إلا للحراسة، ولا يجوز إدخاله للبيوت لأنّ الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب. ذكر الكلب في سورة المائدة في قوله تعالى: "قل أحلّ لكم الطيّات وما علّمتم من الجوارح مكّليّن تعلموهنّ مما علمكم الله فكلوا ممّا أمسكن"^{xii}. الكلب من خلال هذه الآية يُرصد لخدمة سيّده، وهو مدينٌ له بحياته، كما أنه مكلفٌ بحراسته. كما ذُكر في سورة الأعراف في قوله تعالى "فمثلّه كمثّل الكلب، إن تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث؛ ذلك مثل القوم الذين كذبوا"^{xiii}. وفي هذه الآية وُصف الكلب باللّهات في كلّ أحواله؛ واللّهات كناية عن التعب والإرهاق. وقد ورد في موضع تشبيه المكذّبين بالدينّ بأحطّ صفات الكلاب، وكأنّ لهائهم إفرازٌ للسموم والأوبئة التي تلوث البيئة. فأفكار أشباه المثقّين وكتاباتهم تسميمٌ للعقول وقتلٌ للضمائر ووادٍ لأحلام الفقراء والمهمّشين. أمّا الأحاديث النبويّة فهي بدورها تنهى عن تربية الكلاب إلّا في حالة الحاجة الماسّة إليها، ولا يجوز الاحتكاك بها. وقد أثبت العلم الحديث أن الكلب يحتوي في لعابه على فيروسات مسؤولة عن بعض أنواع السرطانات. ولذلك إذا لعق كلبٌ في إناء فيتعين غسله سبع مرات بالتراب للتخلص ممّا علق به من جراثيم. إنّ كل هذه التداعيات تردّ على البال كلما تحدّثنا عن مثقفي السلطة. فهم شرّ ماحق وأشدّ خطورة من الأنظمة التي تستعملهم. فكما يتعيّن علينا تجنب الاحتكاك بالكلاب يتعيّن أيضا تجنب الاحتكاك بأشباه المثقّفين وأشباه المبدعين وأشباه الصحافيين.

وفي مواضع أخرى يلجأ الكاتب إلى استعمال عبارة "الكلاب" في سياق السخرية والتهكم من الوضع. "الأنظمة تعاملنا ككلاب... كنا يومها في المنامة نجلس في مقهى وأنا أشرب الشيشة وهو يضحك.. الآن تذكر أننا كلاب"^{xiv}. تسري روح السخرية والفكاهة والدعابة في حوارات المثقفين العرب من ذوي التوجهات المتجانسة؛ وهو موقف منبثق عن استراتيجيات المقاومة لفساد الأنظمة التي تحبب علماءها ومثقفها ومفكرها. والضحك يهدف إلى تدمير صنمية الثقافة الرسمية وزعزعة يقينياتها التي تفتقر إلى الصدق الأخلاقي كما تفتقر إلى التماسك المنطقي. إن "الضحك مخلخل للأحادية والجدية وعامل مجرد من الخوف والإكراهات"^{xv}. لقد تقوّت ثقافة الضحك وأساليب السخرية الفكاهة بقدر ابتعاد الأنظمة عن الحق والعدالة الاجتماعية، وبقدر تغوّها على المعارضة بكل أشكالها وبقدر تهميشها للمثقفين والمبدعين الأحرار. إنها الطريقة المثلى لتحقيق الانتصار على الأنظمة الفاسدة وتشكيل رأي عام مناهض لها ويعمل على تقويضها بطريقة متحضرة.

بمزيد من التأمل والتفكير في جمالية القص في هذه المجموعة نلاحظ أنّ كاتبها قد خرق نمطية الحكيم وخرج عن المألوف في المؤسسة النقدية الرسمية؛ فلغة السيد ساخرة وهي قريبة من العامية الدالة في بعض مراحلها، وبنيتها الزمنية ليست خطية، والأحداث متداخلة ومتشابكة فيما يشبه لغة تيار الوعي، وهي منطقة ذهنية تزول فيها الحواجز بين أبعاد الزمن الثلاثة، وتزول الحواجز بين الأماكن، فالعالم هناك يتمتع باستقلالية عن العالم الفيزيائي وله منطقته الداخلي الذي يستعصي على الإدراك المباشر، والمقاطع السردية مقطّعة ومبتسرة وعالية الاشتغال الدلالي رغم توحيها البساطة. إنها خزان الثقافة الشعبية والروح النقدية التي تخترق كل المحظورات وتكسر كل التابوهات التي تفرضها المؤسسة النقدية الرسمية. فالوعي ليس له حدود في علاقته بالعالم. إنه يتسلّل إلى كلّ أركان الموجودات ويلتقط نبضاتها في أدقّ إيقاعاتها، ويلقي بها في ثنايا الحكيم دون تحفظ. لقد كسرت الدراسات الثقافية مركزية النص، و"صارت تأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه من أنظمة ثقافية"^{xvi} تختفي وراء الأدبية. وإن هذه الأنظمة الثقافية هي التي تصنع ثراء النصوص الأدبية، فهي جانبها المعرفي وحقلها الدلالي وأنساقها المضمرّة التي تكشف طبيعة المجتمعات التي أنتج فيها ومن أجلها النص الأدبي.

نعود إلى العالم القصصي للسيد لنقرأ تداعيات حوار مع صاحبه وهما في المنامة. "إنّ كلاب مصر غير كلاب الدنيا... كلاهم صاحبة قططهم، وقططهم صاحبة فرائهم، وكلاهم لا تنبح على الغريب"^{xvii}، وهي مقولة استقاها السيد من المؤرخ العربي الذي عاش ما بين القرنين الثامن والتاسع هـ والمدعو المقرئ في وصف مصر، وعمد إلى إسقاطها على الحالة الراهنة للأمم المصرية. إنّ أول ما تكشف عنه هذه المقولة هي تميّز الشعب المصري عن غيره من الشعوب. وإن كان الكاتب قد سلّ هذه المقولة عن سياقها الذي وردت فيه، فإنّه احتفظ بالدلالة العامة لها وهي خصوصية الشعب المصري التي تتجلى بشكل أوضح في مثقفها الذين يجسّدون الطبيعة المصرية

البسيطة والعابرة للحدود. وإن السياق الذي كان السيّد يتموضع فيه أثناء كتابة هذه القصّة ينهض دليلاً على هذا التوصيف. فقد كان مثقفاً مهاجراً متواصلاً مع آخره دون تحقّظ، وكان أدبه هو الآخر كتابة عابرة للحدود، وتأثيرها على الذاكرة العربية والعالمية لا يخفى على الإدراك. فإذا كانت الكلاب تصاحبُ القطط، ولا تنبجُ على الغرب، والقطط تصاحبُ الفئران ولا تؤذيها، فنحن نتحدّث عن شعب مسالم ومضيافٍ وعطاءاته كثيرة لأبنائه ولغير أبنائه. فهو لا يفرّق بين الغرب والقريب، والعيش المشترك لديه بمنزلة العقيدة. من أجل ذلك يحتجّ السيّد لدى الكويتيين الذين يميّزون المبدعين الكويتيين عن غيرهم ويخصّصونهم بالجوائز الكبرى من دون المبدعين العرب، رغم أنّهم السباقون لشعارات القومية العربية والوحدة والعروبة، فإذا هي شعارات خاوية تُطلَق من أجل الاستهلاك، وليس أكثر من ذلك. وقد كشفت إقامة السيّد في الكويت أن الخليجيين لا يعاملون العرب من غيرهم معاملة القريب باعتبار وحدة الدين واللغة والعرق والتاريخ. إنّها يعتبرونهم أجنباً، ولعلّهم أقلّ شأنًا من الغربيين المقيمين هناك من أجل تحويل ثروة العرب إلى الغرب. "الأجنبي هو غير الخليجي... والعرب كمان أجنبي ذي الحاجة أبو العيون زرقة"^{xviii}. السؤال الذي يترتب على هذا الاحتجاج هو حول طبيعة المعايير التي يستند إليها الخليجيون من أجل تحديد ماهية الأجنبي. فإذا كان العربي من خارج الإقليم يعامل باعتباره أجنبياً، ويتعرّض للتمييز العنصري من قبل بعض المسؤولين، رغم وحدة اللغة والدين والتاريخ، ورغم الجوار الجغرافي، فإنّ المصريين عانوا أكثر من غيرهم من عنصرية الخليجين، وكانوا دوماً ضحيّة الخلافات السياسية بين الأنظمة العربية. لقد تعرضوا للفصل عن وظائفهم في الكويت وفي ليبيا وفي قطر وفي العربية السعودية، وكل ذلك بسبب خلافات سياسية بين الأنظمة الحاكمة. "يعدّ غياب التقدّير بدوره من أكبر المساوئ التي يمكن أن تضرّ بنا. سهلٌ على المرء أن يتحمّل كل المساوئ الخارجية مقارنة مع الاحتقار"^{xix}. إذا كانت هذه الحقائق محبّطة للعقل العربي، لأنّه عجز عن تفسيرها، أو أنّه رفضها باعتبارها وضعاً غير طبيعي، فإنّ الأمر قد يختلف إذا تعلق الأمر بالعلاقة بين الغرب والعرب. فالكراهية بين ذينك الطرفين، وحالة الحرب التي بينهما تجد تأويلها في النظام الدولي الجديد، ذي الطبيعة الامبريالية والعنصرية المستحكمة ضدّ كل ما هو غير غربي. "لماذا الدبابات الأمريكية تدوس العراقيين في بغداد، والدبابات البريطانية تدوس العراقيين الشيعة في الجنوب والدبابات الإسرائيلية تدوس الفلسطينيين في فلسطين والدبابات الروسية تدوس المسلمين في الشيشان، والعربي المسيحي في أوروبا يُهان لأنّه عربي..... لماذا كلّ هذا؟"^{xx} والجواب هو لأنّهم أجنباً والأجنبي من منظور الفلسفات الغربية ذو تركيبة بشرية ناقصة، وهو يترع على ثروة لا يستحقّها، ولأنّه يرفضُ الحداثة الغربية فيجبُ أن يُحتلَّ حتّى لا يطل شرُّ الغرب. العربي في نظر الغرب إرهابي وبربري وعنيف ومتخلّف ورجعي. فيجبُ أن يُحتلَّ حتّى يُروّض، وأن يُدرّب على تقبّل الحداثة، ويُلقّن العلوم الغربية. وإنّ مثل هذه الوقائع والأوضاع والسلوك العنصري من قبل الغرب يسبّب أزمة وعي حادة لدى

المتقنين العرب ويسبب حيرة توشك أن تدفع بهم إلى حافة الجنون. فرغم أن فلاسفة الغرب يجاهرون بهذه العدائية لشعوب الهامش، وعلى رأسها العرب والمسلمون، ورغم أن الحكومات الغربية تجاهر بتقدير فلاسفتها المتمركزين حول العرق الهندو-أوروبي، إلا أن الحكومات العربية تنقاد لإرادة هذا الغرب المتوحش على حساب مصالح شعوبها. وإن استعداء هذه الحكومات لعلمائها ومثقفها ومصلحيها، هو بسبب هذه الحيانة.

إن هذه النظرة إلى غير الأوروبيين تجد تفسيرها في الفلسفات الأوروبية ذاتها وفي المشاريع الكولونيالية التي لم تكتمل ولن تكتمل ما دامت روح المقاومة تنبض ببعض الحياة. والذي لا يوجد له تفسير هو التمييز الذي يتعرض له العرب في دول الخليج. نعتقد أن سلطة المال هي التي جعلت الخليجيين يشعرون بأنهم متميزون عن بقية العرب. فهم عرب أنقى من عرب آخرين، قد تكون دماؤهم خالطت عروقا هجينة ففقدت نقاءها وصفاءها، وذلك الذي حرّمهم من عطف الخليجيين. يقول السيد أن العربي الذي يغادر وطنه إلى وطن عربي آخر يجد نفسه أجنبيا^{xxi}، ويُجيبه صاحب المقهى "دا احنا شعوب انطه". إن بلاغة العبارة في عمقها الشعبي وفي حملتها الإيديولوجية والأخلاقية. لقد فسدت طباع العرب، وهجرتهم قيم الكرم والضيافة والصدق وحب الخير للآخر. ما عادوا خير أمة أُخرجت للناس. فالمثقفون الكويتيون لم يفعلوا شيئا إزاء الظلم والتمييز الذي تعرض له مبدعو مصر الذين شاركوا في مسابقات أدبية وفنية واستحقوا التكريم ولم ينالوا جوائزهم المستحقة لأنهم غير كويتيين.

يعمل الأدب من خلال النصوص وبأساليب فنية وجمالية تخفي أنساقه ورسائله المشفرة، وتقررها للجمهور العريض، الذي يتشبع بها ويتكيف وعيه ووجدانه وفقها، دون أن ينتبه لخطورتها، فيبدو له الوضع على السطح طبيعياً ولا غبار عليه، فالفقر قدر مقدور وأفضلية الحاكم سنة كونية يتعذر الطعن فيها. وبقاء الحال على حاله أفضل من استبداله.

"إن العمل الأدبي يُعتبر بالضرورة وليس بالحصر كونا متماسكا مبنينا، وعلى أن هذه البنية ليست إبداعا فردياً، ولكنها إبداع جماعي لذات فوق-فردية متميزة"^{xxii}، وهذه الذات فوق-الفردية هي الطبقة الحاكمة المتسيّدة، التي يدافع عنها أشباه المبدعين لأن مصائرهم موصولة بهم. أو أنها الطبقة النقيضة التي تسعى إلى تمرير رسائلها عبر خطابات أدبية مشفرة.

إن تحالف "أشباه المبدعين" مع الطبقة المتسيّدة يبدو منطقياً، يستجيب لمصالح الطرفين. فالسلطة هي التي تؤمن طباعة الأعمال الإبداعية إذا كانت موالية لها، وتؤمن نشرها وتوزيعها والترويج لها عبر وسائلها الإعلامية والدعائية الضخمة، والتي يفتقر إليها المبدعون الأحرار. هؤلاء بدورهم يواجهون خصومهم بنفس أدواتهم وبلغتهم التي يفهمها جمهور الطرفين. "فلا سبيل إلى محاربة المعنى إلا بواسطة المعنى نفسه"^{xxiii}. ثقافة الموالاة في مواجهة

ثقافة المعارضة، والغلبة لليد الطولى، الأقدر على تحقيق المتعة الجمالية لدى القارئ، هذه المتعة التي لا تخطر بالبال بم عزل عن المعرفة وعن السلطة. فمنذ فتوحات فوكو "ومسألة تداخل عناصر السلطة مع عناصر المعرفة شيء موضع اعتبار، وكذا هو أمر علاقة المتعة معهما"^{xxiv} لقد أظهرت تجارب الكتاب عبر تاريخهم الطويل أن الإبداع القصصي يتركز أساسا على محاولة التوفيق بين العلاقات الاجتماعية التي تُحدثها البنية التحتية للإنتاج وبين المثل التي يصبو الفرد إلى تحقيقها في حياته. وإذا كان المبدع أو المثقف الذي يمارس الكتابة ينطلق من واقع إشكالي، محاولا تجاوزه على مستوى التخيل، أو أنه ينطلق من واقع مثالي وخال من التناقضات، ليشيد به فإنه لا غنى له عن التشفير والتمثيل من خلال اللغة الأدبية التي تنتهك معايير الخطاب اليومي. إن النصوص الأدبية لا تعكس العالم بطريقة مرآتية وإنما من خلال الميتا-لغة. والكلمات دوما معبأة ومشحونة بمحتوى إيديولوجي ووقائعي^{xxv}، تقدم لنا دلالة صريحة ذات غاية تداولية، ودلالة ضمنية هي جمالية النص وأدبيته، ودلالة نسقية ذات بعد نقدي ثقافي، وهي في جوهرها خطط للهيمنة وقوانين وتعليمات. وهذه الأخيرة شديدة التخفي في النصوص وشديدة التأثير على المدى البعيد. ويجهد الكتاب في انتقاء معاجهم اللغوية بما يجعلها ترقى إلى مستوى الإيديولوجيات التي يعبرون عنها. وقد أبدع كاتب المجموعة التي بين أيدينا في انتقاء معجمه القصصي من الحضيض الاجتماعي كما من الفئات العاملة. وهما بعدان متحاوران، يتنازعان المكان المشتبه، يسعى أحدهما إلى دحض الآخر. كلاهما يتطلع إلى المجد، "هذا الهوى الفلوت للباقي البالي من الشرعة الإقطاعية"^{xxvi}. كل جسد يتمدد ويحاول أن يصبح سيد المكان كله كما يتطلع إلى توسيع قوله، وإلى إقصاء كل ما يعيق توسعه، ولكنه سرعان ما يقع تحت تأثير تطلعات مماثلة لأجساد أخرى تسعى إلى التمدد وحياسة المكان كله.

شعريّة اللغة القصصية:

من أهم موضوعات القصة القصيرة سرد المغموين والمعذبين في الأرض. والقصة القصيرة لم يحدث أن كان لها بطل وإنما لها بدلا من ذلك مجموعة من الناس المغموين الذين يبحثون عن مخرج لضائقتهم وقد يحولهم عجزهم إلى مجانين على هامش مجتمعاتهم. فمثل هذه التيمات هي التي تُمدد المبدع بالمادة القصصية وهي التي تقتضي معجما لغويا منسجما مع الحقل الدلالي للاشتغال الجمالي والأدبي.

في هذا المبحث نسعى إلى تحليل معالم جمالية اللغة القصصية. هل ترقى هذه اللغة إلى التعبير البليغ والقوي عن انخراط العالم الذي يرشح باعتباره التيمة المهيمنة في جل عناوين المجموعة؟ ذلك ما نروم البحث فيه في الفقرات التالية. يمكنني أن أجزم بدءا أن العالم الذي نعيشه في رحم هذه المجموعة هو انعكاس لواقع مختلف، قاداته تناقضاته العجيبة إلى حافة اللامعقول، هو عالم غيبوبة وتيه بالنسبة للمجتمعات العربية وهو عالم اللامعنى والخلل بالنسبة

للمثقفين. وسواء أكنّا في مصر أو في الكويت أم في المنامة، فإنّ المشهد واحدٌ في جوهره، لا يتغيّر فيه إلاّ الطلاء الخارجي والأعراض البرآنية.

لم تعد بلاغة التعبير تعني الانسجام مع معايير البلاغة التقليدية ومراعاة القواعد النحوية والصرفية، ولم يعد المبدع مطالباً بلغة النخبة العالمية لكي يكون مبدعاً من الصفّ الأول. فالصدق الفني فقد معناه التقليدي وانزاح باتجاه التوافق مع لغة الحضيض الاجتماعي وجماعة المغمورين.

انطلاقاً من هذا المعطى النقدي نحاول رصد لغة القصة في هذه المجموعة ومدى مساهمتها في صناعة الدلالة النسقية والجمالية على حد سواء. ففي القصة التي نحن بصددّها الآن نلمس أهم ملامح لغة القص التي تميز السيد من دون غيره من المبدعين العرب. نحن نعلم أنّ الفرق العام بين الرواية والقصة القصيرة هو فرقٌ في الحجم؛ ومع أنّه ليس فرقاً جوهريّاً، إلّا أنّه موجود وحاصل. الرواية تطوّر رؤية للعالم، بينما القصة تفتح نافذة نحو العالم، نُظّل منها فلا نرى إلاّ واجهة واحدة. إنّ قصص هذه المجموعة قصيرة، وبقدر ما هي كذلك نجدها غاية في الثراء والخصوبة في حقلها الدلالي الذي يسكن اللغة. إنّ الأشياء والمعلومات والأخبار التي يحجبها الكاتب عن شخصياته في القصة نجد لها عوضاً في اللغة النوعية التي لا تتسع لها المعاجم، لأنّها لا تجد تأويلها إلّا في السياق الاجتماعي والثقافي للمجتمع التي وُلدت في رحمه.

لنأخذ هذه الجملة: "فتحت الدكان... مليء بالغبار والأوراق والأخبار... انقطعتُ عن العالم"^{xxviii}. هذه المقاطع السردية تختزل حالة نفسية شديدة التوتر وكأنّها نتيجة اضطهاد نفسي وحيرة وجودية تحاول التواري والتخفي في رحم الزمن المندس في نقاط التتابع التي تفصل بين الجمل السردية. كان الكاتب يستعجل الدخول إلى مكتبه وفي نفسه حاجة للفضاءات المغلقة باعتبارها المكان الأكثر تلاؤماً مع حالة التأمل في الذات والعالم الخارجي. كان مُعرضاً عن الواقع النثري المثير للاشمئزاز في العقول المفكّرة والنفوس الحيرى. وحتى هذا الفضاء المغلق حمل بعض قذارات العالم الخارجي. غبار وأوراق متناثرة. كلّ ذلك مدعاة للانقطاع عن العالم. الغبار يحجب الرؤية ويعمي البصيرة ويقبّح المشاهد، ويعيق عملية التنفّس ويلوّث البيئة. إنّ قبح عالمنا وفساد حالنا وعسر عيشنا والأوراق هي رمزٌ لحاجتنا وذاكرتنا التي تصوّن وجودنا. كانت هذه الأوراق مبعثرة في المكتب دون ترتيب ودون نظام... إنّها اختلال الذاكرة واضطرابها ووعيها المشتّت. فالعودة إلى الرّحم الأول وإلى الطّفولة الأولى ، إلى أرض لم تُرتكب فيها جريمة ولم يُعرَ ولم يجمع فيها آدمي أضحت حاجة ماسّة في وعي السيد. أرض يسكنها الإنسان بكلّ أبعاده المادية والروحية والعقلية. هذه الأرض هي التي يتوحّد بها الكاتب ويتماهى معها. فإذا هي حالة به، وهو متلفّع بها. "العالم أنا... أنا العالم.... أنا العالم". عشرات المرات يُذكر ضمير الرفع المنفصل في هذه القصة، للدلالة على الانفصال المطلق عن عالم الناس المنحطّ، وعن براءة الذات منه ومن حقارته. إن الإمعان في

ذكر ضمير الرفع هو إمعانٌ في الترفع عن دناءة البشر وعن ظلمهم لبعضهم البعض. وهو دليل تضخم الوعي بالذات وبمغايرتها لسفلية العالم وانحطاطه.

إنها لغة تيار الوعي، لغة التداعي الحر والمنساب للأفكار، والمتدرج باتجاه الطبقات السفلى لللاوعي حين يكون الإنسان هو مركز الوجود بكل أبعاده. فلا فراغ فيه ولا نشوز ولا تنوءات؛ عالم دون معالم تحجب الرؤية وتُعطل التفكير. لم يعد السيد يحتمل عالمنا المريض والموبوء بشهوة المال والسيادة. عالم الآخرين كل شيء فيه ضد كل شيء، حقائقه متعددة ومتقاتلة وخلافاته غير قابلة للتفاوض. "إنه الوعي الحاد باستيحاش الإنسان" ^{xxviii} في عالم تشعر فيه الذات بالعزلة القتالة، فالكُل قد تحلّى عن الكل. وتتضح هذه الحقيقة الفاجعة في قصة "تنهيدة غد اليوم أمس" حيث نكتشف أن وجودنا دون نقطة ارتكاز نستأنس بها، ولا نملك إلا تنهيدة تمسح بنا أبعاد الزمن الثلاثة. فالغد يسبق اليوم واليوم يسبق الأمس. اللامنطق هو سيد الوجود. البعد الخطي للزمن مفقود، فاقد للمعنى، مادام مفصولاً في حلقاته الثلاثة. لاحظنا أن الكاتب يلجأ إلى أسلوب التكرار للتأكيد على انحطاط العالم وتشويه الإنسان وحقارته أمام حكامه.

"الدستور يقول... الدستور يا رائق يا بني كلام... الوطن كلام... الوطن ليس ل(نا)... الوطن ل(هم)... كل الشعب خدم ل(هم)" ^{xxix}. هذا المقطع اللغوي الذي يتشكل من جمل قصيرة ومجزأة، تفصل بينها فراغات، وكأن القاص يعبر عن حالة إعياء أعجزه عن وصل أول الكلام بآخره، بدا مفككا غير متماسك، لمضارعة تفكك العالم وانحداره باتجاه التشويه والوضاعة. عالم أفرغت فيه اللغة من مدلولها الواقعي والوقائعي. لم تعد الكلمات تدل على الأشياء، فهي لا تحيل إلا إلى ذاتها في حلقة مفرغة، كناية عن عبثية الوجود في الزمن العربي الرديء والمتردّي. لم تخرج اللغة عن نطاقها الصوتي ولم ترتق إلى مستوى الكلمات الدالة والمدلول عليها. فالدستور كلام، وهي عبارة مكررة في نفس المقطع التلفظي. أُسندت في المرة الأولى إلى الفعل "يقول"، وفي المرة الثانية إلى المصدر "كلام". والمصدر هو ما دلّ على حدث مفرغ من الزمن. فهو إذاً اللاحدث ما دام خالياً من الزمن الوعاء الحقيقي للعمل. وتكرر لفظة "الوطن" ثلاث مرات متتالية. المرة الأولى بمأهي الكاتب بين الوطن والكلام. وفي هذه الحالة الوطن لا يساوي أبعد من حروفه الثلاثة. إنه لا يعدو أن يكون ظاهرة صوتية وفي المرة الثانية ينفي أن يكون الوطن من حق عامة الناس. فهو ليس ل(نا) ولا يحق لنا أن نتصرف على أساس أننا مواطنون أصحاب حق، والذين يملكون الوطن يملكون أيضاً سكانه من عامة الناس، وهم يلجأون إليهم وقت الحاجة. أما ما عدا ذلك فهم أشياء تحفظ في الأرشيف وتوضع خارج الاستعمال. وفي المرة الثالثة يُذكر الوطن باعتباره ملكاً ل(هم). وعامة الناس عبيد لدى حكامهم. إن العالم الذي يُعبر عنه في هذه القصة هو عالمٌ موحشٌ دون قيم، ودون معايير أخلاقية تضبط سلوك الناس فيه. إن القيم المهيمنة على هذا المجتمع هي قيم الرأسمالية الهجينة، حيث تعيش

الفئات الدنيا الاغتراب في أبشع تجلياته، ويشعر الضعفاء بأنهم معزولون ودون مقومات بقاء حقيقية، إنهم يتقوتون بقدر ما يخدمون مصالح السيد. إنه وضع الغرباء والمهمشين والمستبعدين "الذين لا يلاحظهم أحد"، الذين لا يرتقون إلى الوجود في أعين مواطنيهم، فالفقير يدخل ويخرج من غير أن نلاحظه وهو في وسط الجماهير يجد نفسه في الظلمة ذاتها التي يجد نفسه فيها مسجوناً في كوخه^{xxx}. عبر الكاتب عن هذه المعاني من خلال لغة دالة ومشحونة بأخصب المعاني التي تحملها الكلمات مجتمعة أحياناً وموزعة أحياناً أخرى. ومن خلال العبارات المكررة بشكل متواتر وبلغ. كما عمد إلى توظيف العبارات العامة الموسومة بالانتماء الطبقي. فالشخصيات تنطق بلغة مواقعها الاجتماعية للتعبير عن همومها. وهي السبيل الوحيد الذي يغني المؤلف عن التدخل في خيارات شخصياته. إنهم يمثلون أنفسهم وهم قادرون على ذلك بنفس القدر الذي يمثل به المثقفون أنفسهم. واللغة هي الجهاز المفاهيمي الكفيل بالدفاع عن وجود الذات وإثباته. فالمالك للغة مالك لنفسه وقادر على تبوؤ موقعه ضمن الجماعة التي يقتسم معها الجغرافيا والتاريخ والقيم ويشاركها مصائرها.

ننتقل إلى الورا للوقوف على ما آلت إليه الأمة العربية والإسلامية من مفارقات عجيبة، تصب كلها في انحطاط العالم الذي هجرته إرادة الخير وهيمنت عليه ظلال الشر والرديلة. إنها الرسالة الكبيرة التي ترشح عقب قراءة هذه المجموعة.

"خرج نابليون بونابارت إلى الأزهر وارتدى زياً إسلامياً وأعلن إسلامه، فعينه الأعيان والتجار المصريون والمسلمون خليفة وأميراً للمسلمين"^{xxxi}. لم يبق إلا أن يعلن جورج بوش إسلامه ويدخل إلى العراق "داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً" بدل أن يدخل غازياً. قد يكون أسلوب السخرية في التعامل مع أحداث التاريخ المساوية التي مرت بها الأمة الإسلامية أفضل قراءة للذات، من أجل استرجاع وعي مستلب، وذاكرة مغيبة وكرامة مستباحة. إن الحديث عن بونابارت الذي لا يذكر اسمه بمعزل عن الاستعمار، جنباً إلى جنب مع الأزهر الذي هو رمز الهوية الإسلامية، هو من باب إثارة السخرية من هؤلاء الأعيان الذين عينوا بونابارت أميراً للمسلمين. وقد يكون هؤلاء الأعيان من أصحاب العمائم لا يزالون على قيد الحياة وعلى رأس مؤسسة الأزهر، ولا يزالون يعينون القادة العسكريين أمراء للمسلمين، ويصنعون الفتاوى لمن يحتاجها، فلبونابارت أبناء وحفدة في مصر وهم أظهر الناس وأولاهم بالخلافة الإسلامية. وتنسجم هذه الأحداث مع ما يحصل في العراق، فالوطن العربي كله مسرحاً للجريمة ولللمعقول وللعبثية. "المثلث السني يقاتل في العراق والمستطيل الشيعي يشاهد ما يحدث، يا خيبة الأمة الإسلامية، قالت بائعة الزبدة في الشارع"^{xxxii}. ياء الندبة هنا للتوجع والتفجع من الحالة الدرامية التي حلت بالعرب، فالكل يقاتل الكل ويكره الكل، والحقيقة ظلت طريقها ورمت بنفسها في أحضان بائعة الزبدة في الشارع الشاهد على جرائم الإخوة الأعداء. الأمة الإسلامية خائبة وحكامها خونة ومثقفوها مستضعفون وعامتها

مغلوبون على أمرهم. إنها حقائق كبرى اختزلها المؤلف في لغة ساحرة وبسيطة وأحياناً عامية. وعظمة لغة هذه المجموعة تكمن في عفويتها وسلاستها. إنها لغة مثقلة فكرياً وتفكراً طويلاً وعرضاً. تغوص في عمق التاريخ القديم والحديث وتستدرج وشائجه الخفية بالحاضر لاستشراف المستقبل الذي لا يكاد يبين لأن وعينا مشدود إلى الأسفل بكلايب من حديد. إن تاريخ الأمة العربية الحديث محببٌ إلى حد الغثيان، وإن عمق جراحه لا تجد تعبيرها البليغ إلا في لغة الشارع الشبيهة بالهذيان. فهي إلى الخبل أقرب منها إلى العقل. "صدام مات، صدام جاي، صدام موجاي بن لادن حي، بن لادن مات، بن لادن جاي اليوم"^{xxxiii}. أنه الهذيان الذي يستخلص أعمق الأثر الذي يحدثه هذان الرجلان في الفئات الشعبية الدنيا، إنهما رمز القوة والتهيب لدى الشعوب العربية ورمز الإرهاب والعنف والكراهية لدى الغرب. وهنا أيضاً يعتمد الكاتب إلى ظاهرة التكرار مزدوج الوظيفة. إنه يؤكد القصد ويحدث إيقاعاً صوتياً يعزز الدلالة كما أنه يكتف الحاله النفسية المسكونة بالرهبة والخوف الذي يثيره هذان الاسمان في الداخل كما في الخارج. ولعلنا نذكر الرهبة التي كان يحدثها ذكر الرئيس صدام حسين في نفوس العراقيين من الموالاة ومن المعارضة على حد سواء. إنها الصورة التمثيلية التي تستدعي كل الظلال والأحاسيس والأخيلة التي رافقت كل سنوات الحكم العراقي بما فيها السنوات التي شهدت كل حروب الخليج التي كان العراق محوراً الأساسي. وإن اقتران اسم صدام حسين باسم بن لادن هو من فعل القيادة الأمريكية التي كانت تهاجم علمانية النظام العراقي بأصولية الإسلام السياسي. هذه المماهة التي يراود منها تقديم المسوغ الأخلاقي لكل حروب أمريكا في الشرق الأوسط، هي التي طبعت سردية هذه الحالة بروح السخرية المبطنة التي تنبعث من هذا المقطع. لقد ورد أشبه ما يكون بحديث النفس أو الهذيان الخافت للإثارة حالة الاندهاش والغربة لهذا الجمع الغريب بين المتناقضات الأشد تدافعا وتباعداً.

إذا كانت اللغة هي التي تصوغ موقفنا من العالم وهي التي تتلبس بمشاعرنا وأحاسيسنا، وتتحمل أفكارنا ورؤانا وتصوراتنا فإننا نبحت جمليتها من خلال مواقف الراوي وتجاربه مع محيطه الاجتماعي حيث توجه صاحبنا إلى البنك لسحب بعض المال فوجده خاوياً، ووجد نفسه مداناً. فتوجه إلى صاحبه "مُجد مختار"، وهو مقول مليونير والتمس منه أن يعيره عشرة آلاف جنيه. "تنح... اعذر... مال بالكسبي... واعتذر"^{xxxiv}. كان هذا الصديق يتحدث مع السيد عن مشاريعه الكبرى وأمواله الطائلة، وكأنه لم يتوقع أن يواجه بطلب من هذا النوع. لقد تفاجأ وشعر بحرج بالغ وكراهية في نفسه لهذا الموقف الذي وجد نفسه فيه. فلا شيء أشد على البخيل من أن تسأله حاجة من حاجاته، مهما طالت ثروته. وقد عبر السيد عن هذه الحالة النفسية بشذرات لغوية متواترة ومتوترة ومقطعة الأوصال، وهي تمثيلٌ لأفكار المليونير التي شتتها طلب صاحبه. فوجد صعوبة في ملمتها ولم يتمالك عن الحركة غير الإرادية الكاشفة لما يختلج من حيرة بداخله. "تنح". وهو صوتٌ يحدثه المخاطب، وفي مادته الحرفية

يتكرر صوت الحاء، وهو صوت حلقي صعب المخرج كناية عن شدة الحرج الذي يستشعره المليونير وهو يبحث عن العبارات المناسبة لتسويق رده في قالب اجتماعي مقبول. كما أنه يهدف كذلك إلى إشغال المخاطب وإرجائه إلى حين يجد مخرجاً مريحاً لنفسه. ويتبع هذا الصوت بحركة لاإرادية تعبر هي الأخرى عن قلق اجتماعي عنيف، حركة أريد لها أن تداري الكراهية لهذا الموقف المبالغت. هذه العبارات التي يصف بها السيد حالة صاحبه في عبارات شديدة التركيز كانت مفصولة بفراغات تعمق من حالة الحرج التي وقع فيها الطالب والمطلوب، وهي كناية عن الخواء الذي يتصف به عالمنا.

بعد ذلك يتوجه السيد إلى صديق مقيم بالكويت، وهو "أحمد العدساني" ليطلب سلفة قدرها خمس مائة دينار؛ واعتذر هذا الصاحب بدوره بحجة أنه يبني بناية ضخمة استنزفت ثروته. وفي قصة "زهور وعطور... ودولار وحمار" يهاتف السيد الشاعر أحمد مطر العامل في مجلة "صوت الخليج" ويطلب منه سلفة مالية فيجيب قائلاً: "ربي معك ومعني"^{xxxv}. بعد هذه الخيبات المتتالية في الداخل والخارج يقيم القاصّ مهرجاناً للتبول احتفاءً بانحطاط العالم. كيفما كان العالم تكون اللغة. فالموصوف من جنس ما يوصف به. كان الروائي الجزائري رشيد بوجدره كثيراً ما يلجأ إلى اللغة السوقية في رواياته الأولى بشكل خاص، فلما عوتب في ذلك اكتفى بأن قال: "طهروا الواقع أظهر لغتي". وها هو السيد ينتقي اللغة المناسبة للحالة المناسبة. إن عالم السيد هو عالم منحط خال من الصداقات، قد اتمارت قيمه الاجتماعية، ولم يعد الناس يحفلون بما هو أخلاقي. فكل شيء مسلّع ويوزن بميزان السوق. في المجتمعات الرأسمالية، في المتروبول كما في الهامش، يُعتبر المال هو صانع القوة الاجتماعية وهو أساس العلاقات بين الأفراد والجماعات. والإنسان الذي لا مال له لا يمكنه أن يحوز على القوة التي تؤهله لمكانة اجتماعية مرموقة، ولا يُسمح له بعقد علاقات أو صداقات مع آخريه. فالروح الفردية هي العقيدة السائدة ومبدأ اللذة والربح هما المهيمنان على فلسفة الأخلاق، في مجتمع قد هجرته الأديان وغابت عنه المثل الروحية والإنسانية. شعر السيد بهوة سحيقة تفصل بينه وبين الناس، فأنجّه صوب البحر. "ألا يملك الإنسان لا صديقاً ولا عدواً، فهذا هو الجحيم الذي يكابد فيه عذابات العدم المتصاعد بكل الأشكال"^{xxxvi}. إن الذي لا يبالي بي ولا يشعر بمعاناتي لا يمكنه أن يُقرّ بوجودي حتى وإن أقرّ بأني أعيش إلى جواره. فالوجود هو خاصية من خاصيات الإنسان، والعيش يشمل كل الكائنات الحية، والفرق بين المستويين لا يخفى على الإدراك. ويمضي السيد لممارسة طقوس الاحتجاج على دونية عالمنا، وتراجع قيمنا إلى الحضيض من الوعي.

"أبول على بحر الإسكندرية. وجدت بجواري عبد الله النديم يبول أيضاً تأييداً لي. وبيرم التونسي يبول أيضاً.. وسيد درويش يبول أيضاً وإبراهيم عبد المجيد وتوفيق الحكيم. وقف طابور طويل يبول على بحر الإسكندرية. الإسكندرية مبولة المبدعين"^{xxxvii}. التبول فعل رمزي يختزل إدانة صارخة لواقع موبوء وازدراء لعالم الناس المبتذلين

الذين هيمنت عليهم شهوة المال وغيب عنهم مشاعر الصداقة والمحبة، فلم يعودوا يبصرون إلا أناهم. إن مشاعر الإحباط من عالم الناس هذا، ومن نفاقهم، واستغراقهم في عالم المال والأعمال وتجاهلهم لمعاناة الآخرين يجعل الحياة دون طعم ويجعل التواصل مع الناس متعذراً. لكي تتحقق السعادة لا بد من أصدقاء. إن وجودنا أمر مرغوب فيه، وإنه بالمثل سيكون وجود الصديق أمر مرغوب فيه ومشتهى بالدرجة نفسها. غير أن الذي يجعل وجوده أمراً مرغوباً فيه ومشتهى هو شعوره الواعي بخيرته؛ وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا في العيش المشترك الذي يراعي مصلحة الآخر بالدرجة التي يراعي فيها مصلحة الأنا^{xxxviii}. يعيش الإنسان في تفاعل مستمر مع غيره من الموجودات البشرية. فوجوده هو وجود بين آخرين. فالوجود البشري هو أساساً وحسباً وجود جماعي، وبدون الآخرين لا أستطيع أن أوجد بصفتي إنساناً. إن الوعي بالذات لا يحقق اكتماله ونضجه إلا في وعي آخر بالذات. "وكما أن الذات لا قيمة لها إلا إذا اعترف بها الآخرون، على هذا النحو، فإن اكتشاف أي حقيقة كيفما كانت، حول ذاتي يتطلب بالضرورة وساطة الآخر، فهو شرط لا غنى لي عنه بالنسبة لوجودي، وكذا بالنسبة للمعرفة التي لدي عن ذاتي"^{xxxix}. ومن هنا ندرك عمق المسألة التي شعر بها الراوي لما لم يجد آذاناً صاغية لضائقة المادية حتى من أقرب الناس إليه وأقدرهم على مساعدته. إن تنكرهم لتقديم المساعدة هو إنكار لآخرية الراوي وتحويله إلى وجود عديم الجدوى، أو إلى كيان منقوص لم يكتمل بعد. من هنا يصطدم السيد بوحشة العالم وبؤسه، فيستنجد بلغة تعبّر عن خواء العالم ودنسه، وخلوه من الكرامة والطهارة التي نادى بها الأديان السماوية. إنه عالم لا يساوي أبعد ولا أجل من فعل التبول في البحر.

تجد الإنسانية تعريفها الفعلي في التواصل بين البشر والتفاعل الإيجابي فيما بينهم. فالإنسان كائن ناقص، وقد وُلد في عدم الكفاية، وهو فريسة حاجته الدائمة للآخرين، ويبحث دائماً عن التّمة الناقصة لوجوده لدى الآخرين، فإذا حُجبت عنه هذه الحاجة التي تم كفايته، فقدت الإنسانية أهم صفاتها وتحولت إلى وجود حيواني غير عاقل، وتحولت الحضارة إلى بربرية وأختزلت الثقافة في الطبيعة، وتخلّى الإنسان عن آدميته. لكي يكون التوحد والاكتفاء الذاتي ممكناً بل وضرورياً ومسوغاً لا بد أن تكون إما لها مطلق القوة، أو حيواناً يسد كل حاجياته دون الاستعانة بالآخرين. إن الحاجة إلى الآخر من أجل تحقيق الذات هي من أهم مميزات الإنسانية.

سنأخذ الآن نمطاً آخر من أنماط لغة السيد. واللغة كما نعلم تتغير نمطها بتغير سياقاتها الاجتماعية وحيثياتها النفسية. فالمفردات والعبارات والجمل والوحدات السردية كلّها تتكيف مع السياق ومع الحالة النفسية، ومع الظروف الاجتماعية للمخاطب والمخاطب كليهما. في قصة "زهور وعطور، دولار وحمار" يقول الراوي ما يلي: "ذات صباح حيث استراحة الجراح اكتشفت أن شاذاً جنسياً جلس على حجري وأنا جالس على المكتب، وقال: قبلي... تركت المكتب وهرعت إلى الشارع. يا إلهي... كم أخاف من الرجال الشواذ فكرياً، فما بالك

بالشواذ جنسياً^{xl}. في هذا المقطع حافظت لغة السيد على تواتر مقاطعها وتسارعها، كناية عن الحركة النفسية المرتبطة بوضع اجتماعي وأخلاقي غير طبيعي. إنه مسحٌ للمجتمع الكويتي الهجين. فقد أصبح قبلة لكل الأعراق والقوميات الغربية والآسيوية والإفريقية. وظف القاص لغة الوصف والكشف المثير للدهشة. وعبر عن هذه الدهشة المشوبة بالإنكار بنداء الندبة "يا إلهي" والغرض من هذا النداء الإعلان عن هول المندوب وعدم احتمالها والتوجع منه، باعتباره أمراً غير مألوف وهو شاذٌ وبغيض ومثير للغثيان والسخط. وقد ألفتنا أربعة أفعال في الزمن الماضي وفعلاً واحداً في الزمن المضارع وآخر في الأمر عندما التمس الرجل الغربي من السيد تقبيله. وهو الفعل الذي دفع الراوي للاندفاع باتجاه الشارع. إن كثرة الأفعال وتتابعها الحثيث هو لمجارة الحركة النفسية التي تشكل موقفنا من الواقع المعطى الذي يشارك الناس في صناعته دون مراعاة لفرديتهم. فهو مجال العلاقات الاجتماعية والمرجعية الأخلاقية. تذكرنا هذه الحركة باتجاه الشارع، باندفاعه باتجاه سيارته لما التمس منه امرأة صديقه أن يزورها في بيتها، فأعرض عنها بدعوى أنه لا يعاشر زوجات أصدقائه الجميلات خوفاً من غوايتهن.

تتسارع وتيرة السرد إلى درجة التوتر والانقباض من هذا المشهد المخل بالحياء، وبالأعراف والأديان، ليعبر بعد ذلك عن خوفه من مجتمع يعج بالشواذ جنسياً وفكرياً وأخلاقياً. إنه مجتمع يدفع إلى العزلة والتوحد. لقد دأب الناس على وسم كل سلوك لا ينسجم مع متطلباتنا وعاداتنا بالشذوذ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى لتبرير حكمهم الإقصائي. ومهما يكن فإن حالة الخوف التي أعقبت التحرش الجنسي تضخمت لتتحول إلى حالة خواف من مجتمع شاذ على مستويات متعددة. مجتمع تحول إلى تجمع لجنسيات مختلفة ومتنوعة وذات مرجعيات ثقافية شتى. لقد كان الراوي يعمل مترجماً في شركة متعددة الجنسيات، وهو متعود على الاحتكاك مع محيط يعج بالاختلاف الثقافي. وإن المجتمعات التي تعيش التعدد الثقافي تكون أكثر من غيرها عرضة للصراع من أجل البقاء، حيث تلعب فروق الهوية دورها الفعال في السعي نحو التفرد. ولذلك عبر الراوي عن خوفه من مجتمع قد غزاه الشاذون فكرياً وجنسياً وأخلاقياً فغادر المكان ونأى بنفسه عما يسيئها.

وإذا كان عالم السيد مليئاً بالشواذ فهو أيضاً مليء بالحمقى. وللتعبير عن هذه الظاهرة يستوحي السيد كنوز التراث، ويورد رواية للأوزاعي عن عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام. "بلغني أنه قيل لعيسى بن مريم: يا روح الله إنك تحيي الموتى؟ قال نعم، بإذن الله. قيل وتبرئ الأكمه؟ قال نعم بإذن الله. قيل فما وراء الحمق؟ قال: هذا الذي أعياني"^{xli}. وواضح ما في هذه الرواية من روح فكاهة وسخرية لا يخطئها الإدراك من مجتمع غاب عنه العقلاء ففشت فيه الرذيلة بكل أشكالها. يلجأ السيد إلى أسلوب الشرح المعجمي المستوحي من كتب التراث، كما يتناص مع الشعر العربي القديم، كل ذلك تنويع أسلوب يهدف إلى كسر نمطية الحكيم والقص كما تعلمته الذائقة العربية وألفه القارئ.

التنّاص:

التنّاص كما هو معلوم حضور نصوص سابقة في النصّ الرّاهن. ومن غاياته استحضار المعاني السابقة ووصلها بالنصّ الحاضر، من أجل صناعة دلالة مركّبة من أمشاج الماضي الذي لا يزال قيد التشكّل، واستشراق عالم غائب، لم ينضج بعد في المخيلة الأدبيّة. كما أنّه يهدف إلى تقوية النصّ الحاضر وتخصيب حقله الدلالي، وتجميل بنيته البلاغيّة باستعارات زمنيّة ومكانيّة تصنع فائض المعنى. انطلاقاً من هذا المدلول نحاول وضع اليد على بعض موقع التنّاص ونحاول تفكيكها للنظر فيما جادت به هذه النصوص الغائبة الحاضرة. وسنختار تلك النصوص التي تخدم التيمة الأساسيّة التي شكّلت موضوع هذا المقال، وهي فكرة انخراط العالم وكيف واجهه الراوي وحاول تجاوزه من خلال السرد والوعي المضاد. لقد جاء الردّ على انخراط العالم وتشيّء البشر بالكتابة، وأحسبها شكلاً من أشكال المقاومة للشرّ بكلّ تجلّياته، وحيثما كنا. ففي مصر مثلاً يبدو أن للسيد خصوماً شرسين في أوساط المثقفين، ولعلّهم المقصودون من قوله "أشباه المثقفين". ولعلّه لما كان شاباً جامعياً في أوج عطائه النضالي والفكري، وجد عقبات كثيرة من أجل عرقلة مساره الأكاديمي، ولم يتمكّن من مناقشة رسالته في الدكتوراه إلاّ بعد معاناة طويلة. ولما تمكّن من رفع التحدّي وقدم عملاً متميّزاً استحضر قول الله تعالى: "قل جاء الحق وزهق الباطل، إنّ الباطل كان زهوقاً"^{xliii}. فالحق هنا هو المكانة العلميّة والأخلاقيّة التي يحظى بها السيّد في الجامعات المصريّة، بدليل أنه أغنى المكتبة العربيّة بترجمات إبداعية متميّزة ومتنوعة بشكل لم يحصل مع أديب عربي معاصر، رغم الحصار الإعلامي الذي ضرب حوله، ورغم المضايقات الماديّة التي أعاققت نشاطه العلمي، ورغم المساومات التي تلقاها من الحكومات المصريّة والعربيّة لكي يكفّ عن إزعاج سكينتهم، رغم كل ذلك ورغم ما خفي عنّا لحظة كتابة هذه السطور، فإنّ هذا المبدع الأملعي لا يزال يقدم عطاءات ناضجة ومكينة تبعثُ الروح في الجسد العربي الهامد. "أن يحسّ المرء أنّه تافه، فهذا يعود إلى حدّ ما إلى الإحساس بانعدامه، وأن يجعل أحداً تافهاً، فهذا يساوي تقريباً تسديد ضربة قاضية إلى أناه (...)"، وعلى العكس من هذا إذا حقد الكلّ على المرء باستثناء نفسه، فهذه حالة مرجوة ولا يفضي على العكس من ذلك مثل هذا الاحتقار العام إلى موت الأنا"^{xliiii}. إنّ خصوم السيّد في الإدارة كما في المجتمع، لا يروونه تافهاً، ولو كان كذلك لتجاهلوه، بل إنهم يروونه خطيراً، ولذلك أجهدوا أنفسهم لإقصائه. ولقد استمدّ السيّد من هذا السلوك العدائي روح المكابرة والمقاومة والعناد، من أجل إثبات الذات وتحقيق الوجود الذي يتخطّى مجرد العيش.

أمّا الباطل الذي زهق، فلعلّه خيبة أشباه المثقفين من تمكّن السيّد من مناقشة رسالته وقد راهنوا على تعطيلها قدر الإمكان. ومسعاها هو مسعى باطلٌ لأنه لا يستند إلى حجج وجيهة. قد يكون السيّد تعرّض لعراقيل إدارية

ومالية بسبب موقفه المناهض للنظام، وللمعارضة الشكلية التي أنشأها النظام من أجل اكتساب مزيد من الشرعية.

"وبعد مناورات وسوء نية، كانت تعرقل السير العادي لتقديم أطروحتي الجامعية، وبعد صبر طويل ومعاناة مريرة، وبعد صمت حكيم ضبطت فيه أعصابي جاء الحق فتبينت الخيط الأبيض من الخيط الأسود"^{xliv}. إن الخيط الأبيض بالمعنى الذي ورد ذكره في القرآن الكريم هو الفجر، وهو كناية عن ضوء النهار ووضوحه وجلالته، وانقشاع ظلمة الليل البهيم الذي يحجب الرؤية ويعمي البصر. وكل ذلك هو كناية عن الحق الذي إذا بان وظهر علا وساد وأفحم وجلّى البصر والبصيرة، وبدد الباطل وسفّفه، فلم تعد له حجة ووجاهة يجادل بها. لقد بين السيد الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وكشف زيف الإعلام الفاسد، وفضح نوايا السوء والعراقيل التي كانت توضع في طريقه من أجل منعه من إتمام مشواره العلمي. وكما يتنفس الفجر فيبدد ظلمة الليل بوتيرة سريعة وحاسمة، كذلك يبدد السيد ظلال الشك التي أحيطت به، ويتمم مشروعه العلمي، ليكون فاتحة لعطاء علمي دافق. إن استحضار آيتين من آيات القرآن الكريم في هذا الموقع الاحتدائي بشكل لافت لهي استعارة بالغة القوة وشديدة الكثافة، وعميقة الأثر في النص القصصي عموماً. إن حضور نصوص قرآنية في النص الراهن من شأنه أن يثقل حقله الدلالي ويغني بنيته الفنية في مادتها اللغوية والتخييلية على حد سواء.

نضع أيدينا الآن على قصة قصيرة ذات نفس ملحمي عميق الدلالة. إنها قطعة موسيقية مقتطعة من رحم الوجود الإنساني الممتد في الديمومة الأزلية، يتصادى مع تاريخ الإنسان الأول الموصول بعصر النبوات. قصة "أشياء لا تحلم بالهجرة" على قصرها مثقلة بمحوم البشر الذين يكابدون مرارة خيبتهم وأوجاعهم التي صنعوها بأيديهم في صراعهم من أجل البقاء. وقد وردت لغتها على درجة عالية من الشاعرية، محدثة إيقاعاً متناغماً مع مهابة القرية المقدسة التي يعود إليها محمد فاروق عائداً من هجرته التي دفعت به إلى البحث عن منجل يستأصل به الشجرة الملعونة التي تسمم حياة أهل القرية. قد يكون محمد فاروق هاجر خارج بلده بحثاً عن المعرفة التي تؤهله لمقاومة الشر المستفحل في بلده بفعل تغول الإنسان على أخيه الإنسان. لقد كان الفساد ينتشر في الأرض المصرية والعربية عموماً كما تنبت الأعشاب بين الصخور لتغزو مزارع الفلاحين وتمتص جهودها. وإزاء هذا الوباء المستفحل، لا بدّ من رجل مُخلص ينهض من أجل تطهير أرضه من أعشابها الطفيلية. "يوجد في القصة القصيرة دائماً ذلك الإحساس بالشخصيات الخارجة على القانون، والتي تقيم على حواف المجتمع، والتي ترمز في بعض الأحيان إلى شخصيات من أمثال عيسى وسقراط وموسى"^{xlv}. نبيان وفيلسوف، كلهم عاشوا من أجل خلاص البشرية من الطغيان والفساد، والرديلة، كلهم عاشوا مهاجرين بحثاً عن المعرفة والحكمة. تأخذ حياة الإنسان بعدها الحقيقي ووجهها المشرق بنور الله وجمال الكون عندما يعيش هذا الإنسان من أجل قضية عادلة، ويخسر كل

أعراض الدنيا من أجل هذه القضية. وقضية مُجد فاروق هي استئصال أشجار الحشخاش التي تسمم الأرض الطيبة. لما وصل قاربه إلى الشاطئ نودي أن "اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى" ^{xlvi}. هذا النداء الإلهي الذي يبارك رسالة موسى ويبعث فيه الحماسة والقوة الروحية التي تمكنه من أداء مهمة التبليغ، هو نفسه الذي تضطلع به مريم وهي تنتظره على الشاطئ بشوق عجيب. "يا مريم، يا ابنة يعقوب، يا أخت يوسف وابنة آتون. يا رفيقة عمري...ها أنذا قد عدتُ ومعى المنجل العجيب والمزمار الحبيب الذي أعطيتني إياه كي أغني في ليالي العنف" ^{xlvi}. وواضح ما في هذه الأسماء من رمزية تاريخية ودينية مشبعة بالقداسة والطهارة. وكذلك المهمة التي ندب لها مُجد فاروق هي مهمة مقدسة والأرض التي سينجز فيها مهمته النبوية هي أيضا أرض مباركة. أنها أرض النبوات، وأرض العطاء والكرامات، ولا يحق للطغاة أن ينعموا فيها بالسكينة والدعة. لا بد من مقاومتهم واستئصالهم كما يستأصل الورم الخبيث من الجسد المريض. واضح أيضا ما في هذا النداء المقدس من غنائية ورومنسية دينية تنفّس عقب التاريخ وتنفذ به إلى الجوهر من روح الإنسان، لتوقظ فيه جذوة المعرفة ونشوة العمل المفعم بالحب والتضحية من أجل القضية. "بدأ يقطع الأشجار وتنهال عليه الرصاصات (.....) ومريم تتحسس بطنها وتسأل نفسها: هل سيأتي المصطفى ليرث منجل أبيه؟" ^{xlvi}. كما يقتل بنو إسرائيل الأنبياء والمرسلين ويطاردوهم، تقتل الأنظمة العربية مبدعيها الأحرار وتنفهم وتشردهم، وتسقط عليهم كل الصفات المقبوحة. فهم الخونة والإرهابيون والخارجون على القانون وهم الشر الماحق. غير أنها لا تستطيع أن تقتل الفكرة إذا نضجت وخرجت إلى الفضاء المفتوح وتلقاها الناس لتفعل فعلها في القلوب والضمائر والوعي. تنتظر مريم "مصطفى" فالنطفة بلغت مستقرها وأينعت وتشكّلت بشرا سويا، وسيخرج ليرث منجل أبيه وبندقيته وسيستقم له وللمغمورين الذين غمرهم الطاعون بسبب الشجرة الملعونة.

نتنقل إلى موطن آخر من مواطن التناص، غير أننا سنبقى مع تاريخ مصر ومع فراعنتها وأنبيائها. فذلك تاريخ لا تنفسي عجائبه ولا تحف أقلامه، وسيظل خزاناً دافقاً للمبدعين وذاكرتهم التي لا تمحى، ولا يزيدها الزمن والتقدم إلا خصوبة. يستحضر السيد قصم أم موسى التي أرضعت ابنها وألقت به في النيل بوحى من الله تعالى، ليلقطه عدو له ولتكون نهايته على يديه وفي ذلك خلاص لشعب مصر واسترجاع للكرامة وللثروة.

"وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين" * فالتقطها الفرعون ليكو لهم معدوا وحزنا، إنفرعونوها مانوجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون نقره عين ليولكلا تقتلوه عسا أن ينفعنا أو نتخذ هولا وهما لا شعرون * ^{xlvi}. وردت هذه الآيات في قصة "رجل يسير في صندوق". ويشير هذا العنوان إلى المعجزة التي عاشها النبي موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في مصر وتحديدا في نهر النيل. هذا النهر الرمز الذي لا يذكر بمعزل

عن مصر وعن تاريخها وعن أرض النبوات والمعجزات. إنه أيضا رمز لثروة مصر القومية التي لا تنفذ ولا تبلى ولا تفلس. غير أن الراوي في هذه القصة يطالعنا باختفاء هذا النيل في مكان مجهول، وأن الشعب المصري والعربي كله خرج للبحث عنه، وأنه قد رُصدت جائزة كبرى لمن يعثر عليه. وقد تزامن اختفاؤه مع احتلال جنوب لبنان. لقد ضاعت مصر بضياع ثروتها وضياع سيادتها، وضاع جنوب لبنان، ف"أخذ إبراهيم الكرة الأرضية وأخذ يبول عليها"¹ وعلى تصريحات القيادات العربية المهزومة وعلى مؤتمراتهم التي تشبه عويل الذئب في الصحراء. وليس أبلغ من فعل التبول لإدانة أنظمة الخيانة والعمالة والاستبداد. جبارون في بيوتهم خوارون خارج البيوت.

إنّ هذا الرضيع الذي سبح به النيل وألقى به في بيت عدوّ له، هو المنقذ لمصر التي ضيّعت ثروتها وسيادتها، وباعت جزءا من الأراضي العربية مقابل سلام بطعم الاستسلام. هذا المنقذ الذي أدرك الشعب وهو على حافة المجاعة والهلاك، فأنقذه، وجاء ومعه الخبز والأمل وبه استعادت مصر وهجها القومي وعزّتها التاريخية، ومجدها الفرعوني. "خرج المصريون يصرخون وإبراهيم يصرخ، هذا حكم فرعون الجديد ألم أقل لكم؟"^{li}. إنها التوأمة بين ماضي مصر القديم وحاضرها الذي انبعث من تحت الرماد. فالمقصود من التناص مع الماضي هو استجلاء الوشائج التي تصلنا به، وبيان عظمة هذا الحاضر التي استمدّها من تاريخه السحيق، وقديسيته التي استوحاها من أرض الأنبياء والعظماء. إنها أرض مباركة هذه التي لا تغادرها الذاكرة الدينية والتاريخية. إن عظمة مصر في أرضها وفي نيلها وفي رجالها الذين لا يتخلفون عن نجدتها كلّما تهدّدها خطر من أبنائها العاقين أو من أعدائها الآخرين.

الخاتمة:

ما من قصة مررنا عليها في هذه المجموعة، والسيد في مصر أم في الكويت أو في دبي، أو في أي مكان من الوطن العربي، إلا خرجنا بقراءة مباشرة أو غير مباشرة، صريحة أو خفية، مفادها أن عالمنا منحطّ وأننا وصلنا إلى الحضيض الذي ليس من ورائه إلا الخواء والخلاء. عالمنا الذي باعنا فيه حكامنا إلى أعدائنا، لتحوّل إلى عبيد في سوق النخاسة، نكابد شظف العيش ولا أحد ينتبه إلى أوجاعنا وآلامنا، تأتي إلى هذا العالم ونحن نصرخ ونغادره بصمت قاتل دون أن ينتبه إلينا أحد. إننا نعيش عزلة وجودية ولا نكاد نجد من يفهم لغتنا، ولا يردّ على نداءات الاستغاثة التي نرسلها في شكل قصائد للفقراء وأغاني للؤساء، وصلوات للمتعبدين الذين كرهوا مجالستنا فاتخذوا لأنفسهم صوامع وكنائس وراحوا ينتظرون مهديا طال انتظاره أو رسولا ميؤوسا من قدومه.

السيد باعتباره صوت المثقفين صوّر انحطاط هذا العالم وفساد قيمه، وصراع الإرادات فيه. وعكس شعوره بالإحباط من الشعارات الجوفاء التي يردّها المسؤولون بكثير من النفاق والزيف، ليوهموننا أنّ الأمور تسير على أحسن ما يُرام، وأنه ليس في الإمكان أفضل ممّا كان. في دول الخليج الذي يتربّع على ثروات لا يستحقّها، تقام التظاهرات الثقافية التي يشارك فيها كل العرب، وعندما يحين دور التكريم وتشجيع الكفاءات يقصى الأجانب من

الغنائم، -والعربي من خارج الخليج أجنبي-، ويتعرضون لموجات التسريح من وظائفهم دون سابق إنذار، ولا أحد من المسؤولين يبالى بحالاتهم الحرجة وبأوضاعهم المأساوية داخل بلدانهم الأصلية. إن التمييز الذي يعاني منه العرب والمسلمون من الشرق الأوسط ومن إفريقيا وآسيا داخل دول الخليج لم يجد أصواتاً من الداخل تنكره أو تدينه، دع عنك أن تسعى لتغييره.

يصور السيد أيضاً الانحطاط الذي آلت إليه العلاقات الاجتماعية بين الأفراد، تلك العلاقات التي تتحكم فيها قيم الأنانية وحب الذات والتكبر لمقتضيات الصداقة والأخوة والجوار، وهي أهم القيم التي تدعو إليها الأديان السماوية وأخلاق العقل الخالص. وقد استعرض السيد ثلاث تجارب مع أصدقاء من أصحاب الثروات الطائلة، حيث طلب منهم سلفة مالية، وكلهم امتنع بحجة وبغير حجة. وقد عبر القاص عن هذه المضامين في لغة شاعرية إلى حد الإدهاش، حتى أنه يُحِيلُ إلينا أحياناً أننا مع سمفونية تردد أناشيد الإنسان المتمرد الذي يروم حرية دون حدود.

وأحياناً أخرى يلجأ السيد إلى الرمز بالغ التخفي، والذي لا يمكن فك شفراته دون العودة إلى التاريخ والنصوص الدينية بسياقاتها التاريخية والاجتماعية. إنها رحلة شيقة بقدر ما هي شاقة، فهي لا تقدم ثمراتها بسهولة، ولكل من طلبها. لا بد من إعمال الفكر إذا كنت في حضرة هذا العقل المقتدر الذي طوّع التاريخ واللغة والاجتماع رهن إرادته. فتجارب بعيدة الغور، وأنفاسه يمكن تمييزها على مستوى المفردة الواحدة، كما على مستوى العبارة، أو على مستوى الأقصوصة الواحدة.

ⁱ -عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، ص 85-86.

ⁱⁱ -السيد حافظ، لك النيل والبحر والهرم يا أميرتي"، ص 14.

ⁱⁱⁱ -نفس المصدر، نفس الصفحة.

^{iv} -السيد حافظ، لك النيل والبحر.."، ص 121.

^v -المصدر نفسه والصفحة نفسها.

^{vi} -المصدر نفسه، ص 122.

^{vii} -نفس المصدر، ص 122.

^{viii} -المصدر نفسه والصفحة نفسها.

^{ix} -المصدر نفسه، ص 122.

^x -المصدر نفسه، ص 123.

^{xi} -السيد حافظ، أحبك قبل بعد أن تغيب الذاكرة، ضمن مجموعة إليك النيل والقمر، ص 123.

^{xii} -القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 4.

^{xiii} -القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 176.

^{xiv} -السيد حافظ، أحبك قبل بعد أن تغيب الذاكرة، ضمن مجموعة إليك النيل والقمر، ص 123.

^{xv} -عبد المجيد الحسيب، الرواية العربية الجديدة وإشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع. إريد-الأردن ط الأولى 2014. ص 6.

^{xvi} -عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط الثالثة 2005. ص 17.

^{xvii} -السيد حافظ، أحبك قبل بعد أن تغيب الذاكرة، ضمن مجموعة "لك النيل والبحر" ص 123.

^{xviii} -نفس المصدر، نفس الصفحة.

^{xix} -تزيّتان تودوروف، الحياة المشتركة، ترجمة منذر عياشي، كلمة والمركز الثقافي العربي، ط الأولى 2009. ص 34.

^{xx} -نفس المصدر، نفس الصفحة.

^{xxi} -المصدر نفسه والصفحة نفسها.

- xxii- عبد الرحمان بوعلي، سوسيولوجيا الأدب والرواية، دار الأيام للنشر والتوزيع، الطبعة العربية 2015، عمان-الأردن، ص 64.
- xxiii- عبد الغلامي، القدر القافي، ص 36. نقلا عن إدوارد سعيد في "الاستشراق".
- xxiv- المرجع نفسه، ص 24.
- xxv- عبد الرحمان بوعلي، سوسيولوجيا الأدب والرواية، ص 161.
- xxvi- تيز فيطانتودوروف، الحياة المشتركة، ص 24.
- xxvii- السيد حافظ، أحبك قبل بعد أن تغيب الذاكرة، ضمن مجموعة "لك النيل والبحر.." ص 121.
- xxviii- فرانك أوكونور، الصوت المنفرد، ترجمة محمود الربيعي، مكتبة الشباب، مصر 1983، ص 14.
- xxix- السيد حافظ، تنهيدة غد اليوم أمس "ضمن مجموعة "لك النيل والبحر" ص 132.
- xxx- تيز فيطانتودوروف، الحياة المشتركة، ص 96.
- xxxi- نفس المصدر، ص 134.
- xxxii- المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- xxxiii- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- xxxiv- المصدر نفسه ص 137.
- xxxv- المصدر نفسه ص 144.
- xxxvi- تيز فيطانتودوروف، الحياة المشتركة، ص 131.
- xxxvii- المصدر نفسه، ص 137.
- xxxviii- محمد بهاوي، في فلسفة الغير، إفريقيا الشرق 2012 المغرب. ص 127.
- xxxix- المرجع نفسه، ص 59.
- xl- السيد حافظ، زهور وعطور، دولار وحمار، ضمن مجموعة "لك النيل والقمر" ص 142.
- xli- المصدر نفسه، ص 144.
- xlii- سورة الإسراء، الآية 81.
- xliii- تيز فيطانتودوروف، الحياة المشتركة، ص 131.
- xliv- سورة البقرة، الآية 187.
- xlv- فرانك أوكونور، الصوت المنفرد، ص 14.
- xlvi- القرآن الكريم، سورة طه، الآية 21.
- xlvi- السيد حافظ، أشياء لا تحلم بالهجرة، ضمن مجموعة "لك النيل والبحر"، ص 46.
- xlvi- نفس المصدر، ص 47.
- xlvi- القرآن الكريم، سورة القصص، الآيات 7-9.
- li- السيد حافظ، رجل يسير في الصندوق، ضمن مجموعة "لك النيل والبحر"، ص 90.
- li- المصدر نفسه، ص 93.